التاريخ في السيرة الذاتية:
دراسة نقدية في تاريخية ذكريات الطنطاوي

گلزار أحمد پال *

الشيخ علي الطنطاوي (١٩٠٩-١٩٩٩م) من الشخصيات البارزة في العالم العربي وكانت لشخصيته أبعاد كثيرة فهو داعية إسلامية وفقيه وقاص وصحفي وناقد ومؤرخ وله إسهامات كبيرة في مجال الأدب والدعوة والإصلاح وقد حصل على جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٩٠م لخدمته للإسلام. وله أكثر من أربعين مؤلفا في الدعوة والإصلاح والأدب والمقال والقصة والثقافة والتاريخ والسير ومن أهم ما ألفه كتاب "الذكريات" وهو مشتمل على ثمانية أجزاء محتويا على حوالي ألفين وستمائة صفحة وهو أطول كتبه وهذا الكتاب من إنتاج رجل وهب ذوقا خاصا لدراسة التاريخ وفهمه فالكتاب ذو صبغة تاريخية يتصدى الطنطاوي فيه لمواضيع كثيرة مرتبطة بعضها ببعض من خلال الموضوع العام للكتاب وهي في الأصل سيرته الذاتية و الكتاب ملئ بالتفاصيل والمعلومات التاريخية التي تأتي ضمن سرد قصة حياته، إذا هي مربوطة بأداتين- الزمن الممتد من طفولته إلى هرمه (من عام١٩١٤م إلى أواخر عام ١٩٨٧م) والأداة الثانية هي حبكة عامة للكتاب يشد كل أجزائها بشخصيته والكتاب لا يحتوي على الأحداث التاريخية والسياسية والأدبية فقط بل يحتوي أيضا على الاسترجاعات الماضية أو التأملات الحاضرة أو التطلعات المستقبلية ويقدم الكاتب صورة صادقة لعديد من الأقطار الإسلامية خلال سرده لرحلاته

---

* باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سرينغر

المتنوعة كما يقدم تراجم لبعض شخصيات علمية وأدبية يندر ذكرها في كتب التاريخ الأخرى، أصبح الكتاب بكل هذه المميزات وثيقة تاريخية مهمة، غير أن المعلومات التاريخية جاءت متشابكة مع قصة حياته وقد أشار إلي هذه الميزة نفسه في المجلد الثامن من الكتاب "لقد جاءت على نمط عجيب ما سرت فيها على الطريق المعروف، ولا اتبعت فيها الأسلوب المألوف فلم تأت مرتبة مع السنين، ولا مقسمة مع الأحداث ولا كانت تستقيم دائما على الجادة بل تذهب يمينا وشمالا"[١] إذا لا يسهل على القارئ أن يعثر على ما يريد منها إلا إذا وقف عند الطنطاوي منتبها يقتبس منه ما يريد من باب التاريخ.

قبل أن نتحدث عن تاريخية الكتاب ينبغي أن نبين نوعية صلة التاريخ بالسيرة؟ تعتبر السير من أهم مصادر التاريخ كما أن التاريخ يزودنا بالمواد لتأليف السير للشخصيات الهامة، يقول إحسان عباس:

> "ونستطيع أن نقرر في غير تعميم بأن السيرة التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين وهي تجمع أحيانا بين الغاية الخلقية وغاية المتعة التي تحققها السير الأدبية ولكنها قد تكون منبعثة عن مجرد الرغبة في التاريخ أي تكون غاية في نفسها لأن المؤرخين المسلمين كانوا يرون السيرة جزء من التاريخ"[٢]

ويقول في موضع آخر: "كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة – في هذا الوضع – تحقق غاية تاريخية"[٣] تقول الباحثة مريم حماد عن هذه العلاقة بين السيرة والتاريخ:

> "تبدو الصلة بين أدب السيرة الذاتية والتاريخ وثيقة إلى حد القول إن جنس السيرة الذاتية يمثل نقطة استقطاب حاد بين قوة التاريخ وقوة الأدب وقد أشار عبد السلام المسدي إلى ذلك عندما

أكد أن السيرة الذاتية إنما هي حصيلة امتزاج نوعين من الكتابة: التدوين التاريخي والحكاية الفنية"[٤]

يتحدث بعض الباحثين حول تداخل التاريخ مع السيرة بالإضافة إلى الفنون الأخرى كالتاريخ والرواية والقصة والرحلات، ويروا أن هذه الفنون كانت مختلطة بعضها ببعض حتى نشأت وتطورت وتفككت وصارت فنون مستقلة، لذا بينهما علاقة وطيدة ويشارك بعضهما بعضا في بعض خصائصها كما يخالف في بعضها الأخرى. والخلاف يقع خاصة في الفن وتقديم الأحداث كما يوضحها عمر منير إدلبي بقوله " إننا نعتقد أن فارقا جوهريا بين السيرة الذاتية والتاريخ يظهر بشكل جلي من خلال ما هو مركزي في اهتمام كل منهما، فإذا كان التاريخ يدون عادة الأحداث والوقائع....فإن السيرة الذاتية تهتم بتدوين التاريخ الذاتي والاجتماعي"[٥] والعلاقة بين السيرة والتاريخ توجد تقريبا في كل أنواع السيرة الذاتية غير أنها قوية في بعضها وضعيفة في بعضها الأخرى، جاء في المعجم المفصل للتونجي عن المذكرات:"المذكرات نوع من العمل الأدبي الذاتي، يكتبه المؤلف عن حياته أو حياة شخص فذة ذات مقام بارز. ويتبع الأديب في كتابة المذكرات: إما على تسلسل الأيام، وإما بشكل متتابع لأهم الأحداث. ولا يكتب فيها إلا ما هو ذو أهمية، يبرز قضية، ويوضح مشكلة من مشكلات العصر الذي يعيشه. وقد يتوقف عند شخصية أثرت فيه وفي عصره ... وقد اتجهت بعض الشخصيات السياسية والعالمية إلى تدوين مذكراتها."[٦]

يتضح من خلال هذا الاقتباس أن قضايا العصر أو مشاكله أو شخصياته قد تكون محاور مهمة يعتمد عليها كيان السيرة الذاتية أو المذكرات. رغم أن الطنطاوي يميز بين المصطلحين الذكريات والمذكرات ويخص المذكرات لأرباب المناصب ورجال السياسة وقادة الجيوش الذين شاركوا في صنع الأحداث،[٧] ولكن هذه الأصناف من الرجال لم يبلغوا أحيانا من الدقة والشمولية في تناول

الأحداث ما بلغه أديب موسوعي مثل الطنطاوي الذي أتيحت له فرصة أن يختلط بالعامة والخاصة من الناس فيروي مشاهداته وتأملاته في صورة "الذكريات".

كان تدوين الذكريات ونشرها حلمًا يراود الشيخ الطنطاوي سنين طوالاً لكنه أجَّل هذا الأمر، ولما كبر الطنطاوي سناً وأحس بأن لديه خبرات وتجارب بلغت دور النضج وثقلت عليه حملها وأحب أن يشارك فيها الجيل القادم للمنفعة العامة فكانت الغاية الأولى من كتابة السيرة الذاتية هي تخفيف العبء بنقل التجربة إلى الآخرين، وقد كان الاسم الذي أطلقه على الكتاب "ذكريات نصف قرن "قبل أن يولد الكتاب ناوياً أن يذكر فيه كل ما مر به من تجارب أو مشاهد خلال نصف قرن، فلما صدر الكتاب كان قد جاوز نصف القرن بكثير، فعدل إلى الاسم الذي يحمله الآن، وهو: 'ذكريات علي الطنطاوي' وقد صرح بذلك حفيد الطنطاوي مجاهد مأمون ديرانية أيضا.[٨] فالكتاب عبارة عن جل ما رأى الطنطاوي وجرى به في حياته وقد صرح به قائلا: "أروي فيه خبر ما رأيت وما سمعت، من تبدل الدول، وتحول الأحوال، ومن لقيت من الرجال، فلقد شهدت في الشام حكم العثمانيين، وحكم الشريف فيصل، وحكم الفرنسيين، وعهد الاستقلال وما بعده من العهود، وعشت حينا من عمري في مصر، وفي العراق، وفي لبنان، وفي السعودية، و رحلت أقصى المشرق حتى لم يبق بيني وبين (سيدنى) في أوستراليا إلا مرحلة ساعتين بالطيارة، ورحلت إلى (فولندا) في أقصى الشمال من هولندا، ورأيت حلوا ورأيت مرا، وذقت الفقر وذقت الغنى، ووجدت الوفاء ووجدت الغدر، وتركت من التلاميذ في سوريا والعراق ولبنان والسعودية آلافا وآلافا..."[٩] يتلذذ الطنطاوي باسترجاع الأحداث الماضية وبذكرها فيستطرد عند مواقف كثيرة، يقول في بداية كتابه" هذه ذكرياتي، حملتها طول حياتي وكنت أعدها أغلى مقتنياتي لأجد فيها يوما نفسي وأسترجع

أمسي، كما يحمل قِربة الماء سالك المفازة، لترد عنه الموت عطشا ولكن طال الطريق، وانثقبت القربة، فكلما خطوت خطوة قطرت منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاد، وثقل على الحمل، وكلَّ مني الساعد، جاء من يرتق خرقها، ويحمل عني ويحفظ لي ما بقي من ماءها"[10]. يأخذ الكاتب في الحديث عن نقاط التحول والتبدل في مسيرة الأمة الإسلامية فيتعمق في العوامل التاريخية التي تسببت أو أثرت في ذلك التحول، وكان تأثير دراسته الواسعة متجليا في تناوله للأحداث، يقول حفيده مجاهد مأمون: " كان جدي يقرأ في كل موضوع وينظر في كل كتاب يقع بين يديه، ولكنه كان يفضل أشياء على أشياء، فكان أكثر ما يحب قراءته كتب الأدب، وفي المقام الثاني-بعدها-كتب التاريخ. ولقد قرأ-من شبابه-كتب التاريخ الطوال، كتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير وأمثالها، بل وقرء بعضها مرات فيما أعلم. وقد كان يوصينا-ونحن شباب-بقراءة كتاب 'تاريخ الخلفاء' للسيوطي، ولقد رأيت في مكتبته نسخة منه قديمة كتب في أول صفحة منها عدد المرات التي قرأ فيها الكتاب وسنة كل قراءة فوجدته قد قرأه أكثر من عشرين مرة، وقد قال عن نفسه في مقدمته للطبعة الجديدة من كتاب 'رجال من التاريخ' :"أنا مدمن القراءة، يومي كله –إلا ساعات العمل– أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب، وأكثر ما أولعت به التاريخ.....فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب و غيرهم، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات"[11] يتجلى ذوق الطنطاوي وافتخاره بالتاريخ الإسلامي فيما رواه من روائع تاريخية فيودّ أن يخبر الناس بعظمته من خلال كتاباته.

ومن المعروف أن قرن العشرين كان قرن التطورات والتقدم والارتقاء والتحولات السياسية والاجتماعية والحضارية ولما كان الطنطاوي قد عاش قبل الحربين العالميين وبعدهما فتثقف على الطريقة التقليدية القديمة حيث تلقى على المشايخ وعلى الطريقة الجديدة أي تعلم في المدارس الجديدة أيضا، فعاش

تجارب مؤلمة خلال هذا التحول من الثقافة القديمة إلى الثقافة الجديدة، زاد تبصره تجاه هاتين الثقافتين فكلامه عن القديم والجديد يشتمل على ذكر هذه التجارب المريرة التي عاشه خلال حياته، فبذلك هذه التاريخية ليست عبارة عن تقديم بعض الأحداث السياسية المختارة فقط بل التاريخ موجود فيه بمفهومه الواسع حيث يكشف أحوال الناس فكريا وثقافيا واجتماعيا في فترة مشكلة جدا من التاريخ المعاصر، يقول الطنطاوي، "أزهر وجامعة، محاكم شرعية ومحاكم مدنية، يختلفان في الزي وفي التفكير وفي تقويم الحياة، يمشيان كالخطين المتوازيين، يتجاوران ولا يتلاقيان، يتكلمان بلسانين، ويفكران بعقلين، فلا يكاد الشاب يفهم ما يقول الشيخ ولا يرتضي تفكيره، ولا كان الشيخ يعرف الطريق إلى إفهام الشاب وإثارة اهتمامه بما يفكر هو فيه، وكانت هذه هي العلة الكبرى"[١٢] هذا السرد لتاريخ الفكر الديني يجود بالمواقف وبالرؤى الدينية في العصر الانتقال، ففي حديثه عن دمشق وعن طفولته فيها، من أيام دراسته الابتدائية، لا يذكر ذهابه وإيابه من "الكُتّاب" فقط بل يذكر أيضاً حالة الحياة في الشام في تلك الأيام وتحولها من العهد التركي إلى العربي إلى الاستعمار الفرنسي يقول عنه الطنطاوي " لقد كانت معركة ميسلون منعطفا خطيرا في تاريخ بلادي، وما أكثر المنعطفات في قصة حياتي، ذلك لتعلموا أن حياة الأنسان لا تقاس بطول السنين، بل بعرض الأحداث، فلقد بلغ عمري في التاريخ الذي أكتب عنه اثنتي عشرة سنة فقط، ولكني رأيت فيها حكم الأتراك، وحكم العرب، ومن ورائهم الإنكليز، مستخفون بأشخاصهم ظاهرون بأعمالهم، كالوسواس الخناس مع الناس، وسأشهد قريبا حكم الفرنسيين، وهم ظاهرون ظهورا قويا ولكن أثرهم (إن قيس بأثر أولئك) كان ضعيفا"[١٣] ولا يفوته سرد تاريخ أسرته أيضاً حيث يخبرنا عن أصل أسرته وهجرتها من مصر إلى الشام في الحلقات المتتالية فحظي جده الشيخ أحمد الطنطاوي وخاله الأديب محب

الدين الخطيب بذكر خاص في حديثه عن شخصيات أسرته ولم يقف عند أسرته فقط بل تجاوز إلى ذكر بعض أسر دمشق العلمية والعلماء والأدباء الذين كان الطلاب يتلقى منهم العلم في حلقات الجامع الأموي ومكتب عنبر. ثم أسهب في ذكر الثورة على الفرنسيين ودور العلماء مثل بدر الدين الحسني والمجاهدين فيها، وذكر شعر الثورة وتحدث عن شعراء الشام في تلك الفترة ونقل إلينا جزءا من أشعار الشعراء أمثال شفيق جبري ومحمد البيزم وخير الدين الزركلي وخليل مردم وغيرهم يقول عنها الطنطاوي

"هذه نماذج مما قيل في (الثورة الفرنسية) سنة ١٩٢٥م، فيها موضوع دراسة للأديب، وذكرى للمذَّكر، وعبرة لعاقل يريد أن يعتبر"[١٤]، ولما فرغ الطنطاوي من التعليم وأتيحت له أن يشارك في الأحداث وواقع الحياة ويسهم في صنع التاريخ الحديث بدأ أن يشارك في تحرير مجلتي تصدران بمصر: "الفتح والزهراء"، وقد جاء إلى مصر بدعوة من خاله محب الدين الخطيب، وخلال هذه الفترة صدر أول مجموعة من مؤلفاته وهي "رسائل الإصلاح" و"رسائل سيف الإسلام"، تكلم فيها عن الملل والنحل والمذاهب الإلحادية وهجم فيها على المشايخ الجامدين والشبان الجاحدين يقول عنه" الناس يبدؤون باللين، وأنا بدأت الكتابة بالعنف، وهم يكتبون للفن والأدب، وأنا بدأت للنقد والإصلاح"[١٥] ويذكر مشاركته في اللجنة العليا لطلّاب سوريا والمقاومة الوطنية ويصف دمشق وجمالها مع وصف نضالها ضد المستعمر فينتقي لنا بعض الأحداث الخاصة منها، وأفرد الحلقات لذكر الأساتذة والمشايخ والجامعات والامتحانات والأدباء والمدارس ويذكر الحياة الأدبية فيها ولما تصدى بذكر الحجاز أبرز الأحداث الرئيسية وأطال الكلام فيه حتى احتوى ثلثي المجلد الثالث فيكشف الستار عن الحياة البدوية والصحراوية في الحجاز وتأتي ضمن سرد أحداث هذه الرحلة قصة الخط الحديدي الحجازي كما اكتشف ثقافة دينية تتعلق بمراسم

وبمواسم الحج ورمضان، ولما أتى إلى بغداد معلما، قدم لنا ذكرياته عن بغداد والأدب فيه و رمضان في بغداد، ثم عن إيوان كسرى وسُرّ من رأى، ثم ينتقل من بغداد إلى البصرة، ثم من العراق إلى بيروت ليمضي هناك سنة ١٩٣٧ في كليتها الشرعية، وعن دخوله في القضاء ولما شنت الحرب العالمية الثانية عرض لنا أحوال الحرب من منظوره الخاص الإسلامي يقول خلالها " الذئاب تأكل لتعيش، وتهجم على قطيع الغنم ببضعة رؤوس منه، أما هؤلاء فقد قتلوا بضربة واحدة أهل مدينة كاملة، أهل هيروشيما ثم أهل ناغازاكي، كانت ثمرة علمهم، وتفكيرهم ورقيهم وحضارتهم، هذه الجريمة التي هانت معها الجرائم، فمن كان معجبا بهم فليقرن تاريخهم هذا القريب بتاريخنا نحن المسلمين، خذوا مثلا واحدا: لما عدا الصليبيون على القدس، ذبحوا أهلها وقتّلوهم تقتيلا، حتى قضوا على سبعين ألفا منهم ظلما وعدوانا ونذالة ووحشية، فلما استردها صلاح الدين أخرجهم سالمين آمنين:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكمو هذا التفاوت بيننا ... فكل إناء بالذي فيه ينضح"[١٦]

يستكمل الحديث عن الحياة الأدبية قبل خمسين عاماً، وهو حديث عن ذكريات أدبية متنوعة. وأخذ في ذكريات جزائرية ثم ذكريات فلسطينية. وتناول قضية فلسطين من منظور إسلامي، وحضوره القدس للمشاركة في "مؤتمر القدس الإسلامي واقترح بأن يضع المسلمون خطة العمل لتحرير القدس كما يلي:

"وعندي شيء أحب أن أشير إليه هنا إشارة... هو أننا لا ينقصنا في الدعاة فكر ولا علم ولا لسان، ولكن الذي ينقصنا خطة واحدة نسير كلنا عليها وطريق واضح نمشي كلنا فيه، نعرف من أين نبدأ، وإلى أين ننتهي، فلا نشتغل بالأمور

المختلف عليها قبل المتفق عليها، ولا يضع أحد دعوته أو حزبيته، أو قانون جماعته التي ينتسب إليها، ولا صوفيته مثلا ولا مذهبه أساسا للدعوة الإسلامية يصبغها بذلك حتى تصير معرض ألوان، ولا يبدأ بالفروع قبل الأصول، ولا يفرض ما يراه في المسائل الاجتهادية على من يرى غيره، ولست أقلد اليهود، ولكن علينا أن نعد للعدو ما استطعنا من قوة، ومن أقوى القوة خطط العمل، فإذا كانوا قد وضعوا مخططات حكماء صهيون، ورسموا فيها طريقهم إلى عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، يهتدون فيها بعقولهم الفاسدة، ووحي شيطانهم، فلماذا لا نضع خطط ′حكماء حراء′ مثلا، نرسمها للسنين المقبلات، نستهدي فيها بهدي القران، ونسير على ضوء وحي الرحمن؟"[١٧]، ثم يأخذ في الحديث عن كراتشي حتى يروي "قصة باكستان" و" دهلى –الفردوس الإسلامي المفقود" الممتعة بالتفصيل، بعد ذلك يذكر قصة الوحدة وقصة الانفصال بين سوريا ومصر، ويفصل أسباب الانفصال، ثم قصة "ذبح علي الطنطاوي" التي روَّجتها بعض الصحف ثم يستأنف رحلة الشرق فينطلق إلى إندونيسيا ويتنقل بين جزائرها ومدنها، ويذكر قصة إندونيسيا مع الإسلام ومع اليابانيين والهولنديين والبريطانيين ، وخواطره عن تعليم التلاميذ وتربية البنات وها أنا أقدّم إليكم هذا الاقتباس الذي يشكو فيه المؤلف عن فساد طريقة التعليم رغم علمي بأن لا علاقة له بعنواني لهذه المقالة "إن البلاد العربية كلها تشكو من الضعف في العربية، ولعل من أسباب هذا الضعف طريقة تدريس النحو، ولعل من أسوأ ما في هذه الطريقة التعريفات ... أنا لا أدعو إلى نبذ النحو، ولا إلى تبديله، ولكن أدعو إلى اعتباره وسيلة لا غاية، فالنحو إنما وضع من يوم وضع لإقامة اللسان، وتجنب اللحن، وأقصر طريق يوصل إلى هذه الغاية يكون هو الطريق الصحيح".[١٨] ونجد في الكتاب الملاحظات عن المحاماة والمحامين والقضاء والقضاة ، وموضوعات حول أسبوع التسلح بالشام، وأخبار عن "العلم

والعلماء في دمشق قبل نصف قرن"، ثم فتنة التيجانية في الشام، ثم الكلية الشرعية في دمشق. وذكريات علمية في تصنيف العلوم وأخرى في الفقه والأحوال الشخصية، ثم مشروع قانون الأحوال الشخصية الذي اشتغل به الطنطاوي وكان عملا مهما نافعا جدا وقد سافر من أجله إلى مصر، تعكس هذه التفاصيل كلها مشاركاته في العمل السياسي أو الإصلاحي والاجتماعي، ثم يحكي عن الرحلة التي قام بها إلى أوربا سنة ١٩٧٠، حين سافر إلى ألمانيا وبلجيكا وهولندا، ويكتب عن أحوال الدعوة الإسلامية هناك. وفي آخر جزء من الكتاب يعود إلى القضاء وإلى محكمة النقض بعدما ودع المحكمة الشرعية، وأثناء ذلك يعرض أشتاتا من ذكرياته ثم يعود إلى أهم انتقال له، إلى المملكة العربية السعودية ويُفرد ثلاث حلقات للأستاذ أبي الحسن الندوي ومذكراته ثم يذكر بعض خواطره عن تعليم البنات واللغة العربية.

خلاصة

يتضح مما سبق أن التاريخ عنصر من عناصر مكونة للسيرة ويتشابك التاريخ مع سرد قصة حياة الشخص الذي يؤلف سيرته، والذكريات مشحونة بسرد الأحداث التاريخية وبعرض الصور للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في البلدان العربية والإسلامية، وأصبح الكتاب بهذه المعلومات القيمة وثيقة تاريخية مهمة تعطي صورة حية لكثير من الأحداث لأن المؤلف لم يشاهدها فقط بل كثيرا ما شارك فيها فالتاريخ عنده نتيجة للمشاركات العملية أو الانفعالية ليس مجرد قراءة جامدة للكتب.

الهوامش:

١. على الطنطاوي: ذكريات، جدة، دار المنارة، ط ١، ١٩٨٩م، ج٨، ص ٣٣٤.
٢. إحسان عباس: فن السيرة، عمان، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٦ص ٢٤
٣. إحسان عباس: فن السيرة ص ١٢